بداية مقاوم

اسراء عماد العزوني

تدقيق:أحمد عصام

بداية مقاوم

لم يعش طفولته مثل الآخرين؛ هذا الفتى يعيش في عالم مختلف، جل ما به ليس كما سواه، عالم يصنع من الأطفال رجالًا قبل أن يدركوا معنى الحياة، رأى كيف استشهد والده أمام عينيه من رصاصة جندي لا يعرف للرحمة معنًا، اعتنت به والدته بعد أن نزحوا من قريتهم لمكانٍ آخر، هنا ليس له سوى والدته، مات أباه وعمه، ترك أصحابه وألعابه حيث دفن عائلته، غادر وحيدًا مع والدته فليس لها سواه، وذاك الطفل في أحشائها، مشيا كثيرًا إلى أن أرهقهما التعب ليبدأ كل منهما رحلة مشقة جديدة مع الحياة في خيام النازحين.

كان محمد فتى وسيمًا في السابعة من عمره يحمل في ملامحه سمارًا عربيًا أصيلًا وكأنه اختطف من حضن الصحراء، كان ذاهبًا ليحصل على الطعام ممن يقومون ببعض الحملات لمساعدة النازحين، حصل أخيرًا على قدرٍ من المعكرونة بعد عناء الانتظار لعدة ساعات، وها هو يركض للخيمة ليبشر والدته بحصوله على الطعام بعد أيامٍ من الجوع.

"أمي ها هو الطعام الحمد لله حصلنا عليه"

"هل حصلت عليه أخيرًا الحمد لله"

"هيا تناولي الطعام لابد أنكِ جائعة"

"فلتبدأ أنتَ يا صغيري وسأتبعك"

بدأ محمد بتناول الطعام وهو ينظر لوالدته لقد نحفت كثيرًا وبرز بطنها؛ تتحمل الكثير من الألم والمعاناة مع فقدان الطعام والأدوية والرعاية الطبية التي لابد وأن تتلقاها من هي في مثل ظروفها، كانت والدته تنتظر لينتهي من الطعام ويشبع حتى تبدأ بأكل ما تبقى لها، ترغب بحمايته من الجوع ولكنها غير قادرة.

أمي لن تفعلها مرة ثانية هيا تناولي معي الطعام الآن.
"لابد وأنك جائع كُل حتى تشبع يا بني وأنا سأكل فيما بعد"
أمي لكنك تحتاجين الطعام لكِ ولأخي،
"هل قررت أنه أخوك فلربما أختًا"
"حسنًا، لكن تناولي معي هيا"
"يا بني حسنًا"
بدأت والدته بتناول القليل من الطعام حين شعرت بالمغص يراودها مرة ثانية، لقد تكرر الأمر كثيرًا في الأيام القليلة الماضية، أنهت طعامها سريعًا ولم تأكل قدر حاجتها؛ حتى تترك بعضًا منه لطفلها حين يجوع مرة ثانية.

وضعت القدر في طرف الخيمة وأخبرت محمد بأنها ستنام قليلًا، وطلبت إليه أن يلعب أمام الخيمة وألا يبتعد، أجابها محمد موافقًا، وخرج ليجلس أمام الخيمة، لم يكن له أصدقاء بهذا المكان، ويشعر بصعوبة في تكوين أي صداقة، جلس يفكر بحالهم وكيف يطعم أمه يوميًا، هل ستأتيه أختٌ حقًا؟ سيصبح عند إذٍ رجل هذه العائلة الصغيرة، لابد وأن يعتني بهما جيدًا، فقد كانت وصية والده قبل أن يموت هي أن يعتني بوالدته وأخيه، أخذته الأفكار لعالم لم يخلق لعمره، وطاردته الكوابيس في ساعات نومه ويقظته، انتبه أخيرًا لمجموعة من الأطفال يلعبون الكرة، لطالما أحب اللعب بالكرة لكنه لا يعرفهم كيف يلعب معهم، أخذ يحدث نفسه قائلًا:
"هل يمكنني طلب اللعب معهم؟ هل سيوافقون؟ لا، لا يمكنني ترك الخيمة ووالدتي نائمة، هل أذهب قليلًا ربما يسمحون لي باللعب، عليَّ أن أفكر في كيفية الاعتناء بأمي وأختي، ماذا سأفعل لقد اقترب موعد ولادة أمي؟ لقد سجل ذلك الفتى هدفًا رائعًا لكني أبرع منه وأستطيع التسديد بشكلٍ أفضل"

كانت أفكاره تتشاحن بداخل رأسه ما بين الذهاب والبقاء، حين رأى أناسًا يركضون من بعيد، لقد اقتحمت قوات الاحتلال المكان وعليهم النزوح بأقصى سرعة، دخل مسرعًا لوالدته ليوقظها من نومها، وبدأ بأخذ القليل من الأغراض على عجل ليغادرا الخيمة مسرعين، تاركين خلفهما بقية الأغراض وما تبقى من قدر المعكرونة، كان الناس يهرولون، بدأ القصف في كل مكان، تركوا النازحين هذا المكان، ولمرة أخرى بدؤوا برحلة نزوح أكثر مشقة وتعب، كانت في أواخر حملها وكان هو فتى صغير أعناه الجوع وأضعفه، لجئوا إلى المشفى ليكون لهم حصنًا ضد همجية هذا الاحتلال الغاشم، تحدثت والدته:

"سنكون بخيرٍ هنا"

هل حقًا سنكون بخير بت أشك بهذا؟

لا تقل ذلك سيعتني الله بنا مثل كل مرة،

حسنًا، لنجد مكانًا ننام فيه فقد بدأت تظلم؛

وجد محمد مكانًا فارغًا بأحد الممرات ليقوم بفرش بطانيةٍ قد جلبها معه من الخيمة ويجلس ووالدته ليكوما بعض الملابس ليصنعا منها وسادة ويلتحفا بطانية أخرى ويغطا في النوم.

في الرابعة فجرًا سمع محمد أنات والدته وهي تتألم بجانبه لقد أتاها المخاض، ستلد أمه الآن من حسن حظهم أنهم بالمشفى، ركض بسرعة لأحد الأطباء ليأتي به لوالدته وتبدأ عملية الولادة، ليصرخ أحدهم:

"لقد اقتحمت قوات الاحتلال المشفى وبدأت بقتل النازحين"

فصرخ الطبيب الذي يقوم بالعملية

ماذا؟!

كما أنهم يقصفون محيط المشفى أيضًا...

كان ينتفض خوفًا، وصرخات والدته التي بدأت عملية قيصرية بدون أي مخدر تدوي في أرجاء المكان ليقابلها صرخات المفزوعين والضحايا.
جاء جندي يملك وجهًا صُب عليه جامٌ من الغضب، كان وجهه يقطر حقدًا وغلًا وكأن الشيطان تلبسه، مد سلاحه في وجه الطبيب وقتله، ثم وجه السلاح لوالدة محمد الملقاة على السرير تصارع ألم الولادة.

تفجرت كل منابع الخوف بداخل ذاك الفتى حين رأى سلاح الجندي موجهًا لوالدته، وقبل أن يتجه إلى الجندي سحبه أحد الرجال وركض به ليرى محمد رصاص الجندي وهو يقتحم بطن أمه ويردها قتيله هي وأخاه؛ فصرخ صرخة مدوية كانت آه كما لم تكن، حملت صرخته معاناة عالمٍ بالكامل، صرخ الضمير الميت والإنسانية المزعومة، صرخ الطفولة والمنشدون باسمها، غاب محمد عن الوعي لبعض الوقت بعد صرخاته التي زلزلت أركان ما تبقى من المكان.
استيقظ فيما بعد ليجد نفسه في مكان غريب، كان برفقة مجموعة من النازحين لا يعلم من هم، يبدوا أنهم من أنقذوه، لم يدرِي كيف نجا من هذه الحادثة، تمنى لو لم ينج، كانت الشمس تشارف على المغيب يبدو أنه مضى الكثير من الوقت وهو نائم.
هل استيقظت أخيرًا؟
أمي؛ أين أمي؟
لقد استشهدت.!
نظر بأمل على أن يكون ما رأى كابوسًا مزعجًا، لتأتيه الإجابة التي كان يخشاها تصفعه لتخبره بأنه لم يكن حلمًا بل واقعًا مريرًا ولد فيه ولكنه لن يموت فيه.

سأقاوم لأحرر أرضي لأنتقم لدماء أهلي لأحرر العالم الأعمى من سجنه وظلامه.
ولد مقاومٌ جديد، ففي أرض فلسطين يولد مقاومين أكثر ممن يستشهدوا، تحدثكم فلسطين: "هنا أرض الرجال، هم اشتروا الدين بدمائهم ودماء أولادهم، من باع نفسه لله فما خسر ومن باع نفسه للطاغوت فقد خسر خسرانًا مبينًا.

تمت